بين يدي هذه الطبعة

الحمد لله الذي قدّر فهدى، والذي يسَّر فأعان. والصلاة والسلام على المصطفى من خلقه، والمخصوص برسالته، والدالّ عليه، وعلى جميع الآل والأصحاب والتابعين إلى يوم الدين؛ وبعد،

فإن هذا الكتاب يضم بين دِفَّتيْه مباحث أربعة؛ تفرَّقت مواطن نشرها بين السعودية ومصر وتونس والكويت، وتباعدت مواقيت ظهورها ما بين عامي ١٩٨١ و١٩٨٩ للميلاد. إلا أن أوراق هذا الكتاب - وإن ظهرت تفاريق في الزمان والمكان - لم يغب عني ساعة أني جامعها ورادّها - بإذن الله - إلى جوار واحد وتحت عنوان واحد. ولم يزل هذا دابي في كثير مما ييسرني الله له من عمل؛ فخطة الكتاب تكون - في الأعم الغالب - قائمة سلفاً في التصوّر، أما إنجاز مفردات مباحثها ونشرها فمحكوم باختلاف الأحوال ومقتضيات الظروف، حتى إذا اكتملت عدتها وكان يوم الجمع، عرف كل مبحث منها مكانه في الكتاب، وتعيَّن له جارُه الجُنُب وصاحبه بالجنب، وآل أمرها جميعاً إلى صحبة مُؤانِسة؛ تنتظمها في الموضوع، وتُجانِسُ بينها في الغاية .

وأودُّ - في هذا المقام - أن أقدم لهذه الطبعة بأمرين؛ أحسبهما مُعِينَيْن - إن شاء الله - لمن أراغ المنفعة بها من القراء، ولمن يعنيه أمر التأريخ لمسار البحث الأسلوبي في العربية المعاصرة، حتى يمتاز في هذا المقام سابق من لاحق، وتُغَايَر المراجعات والنقود بسياقاتها المُخَصَّصة لها في الزمان والمكان.

فأما أول الأمرين: فهو توثيق النشرة الأولى لكل مبحث من مباحث الكتاب الأربعة. وقد جاء نشرها على الموالاة بالترتيب الآتي:

(١) «قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب عند العقاد والرافعي وطه حسين»

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، المجلد الأول، ١٩٨١.

(٢) «تحقيق نسبة النص إلى المؤلف: دراسة أسلوبية إحصائية في الثابت والمنسوب من شعر شوقي».
مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الأول، ١٩٨٢.

(٣) «في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة: دراسة في دواوين البارودي وشوقي والشابي».
مجلة الفكر، تونس، العدد الثاني، نوفمبر ١٩٨٤.

(٤) «الدراسة الإحصائية للأسلوب: بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة»
مجلة عالم الفكر، الكويت، أكتوبر/نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٩.

وأمّا آخر الأمرين: فالتأريخ لظهور هذه الأبحاث مجموعة بين دفتين في كتاب.

فإلى الأستاذ الجليل عبدالفتاح أبو مدين يرجع الفضل في إخراج الطبعة الأولى ضمن إصدارات نادي جدة الأدبي، عام ١٩٩١. ثم كانت طبعته الثانية في دار عين بمصر، عام ١٩٩٣.

وها هي ذي طبعة جديدة تقوم بنشرها دار عالم الكتب في مصر. وقد قدّر لهذه الطبعة - وإن كانت ثالثة في الترتيب - أن تكون أول طبعة تصدر بعناية مباشرة مني؛ فكان لها على سائر ما عداها المزية في إيضاح المبهمات، وزوائد الفوائد، وتصويب الأغاليط، واستدراك النواقص، وجماليات الإخراج، كما انضاف إليها مسرد مصطلحي كانت الحاجة إليه - فيما أرى - ظاهرة ملحة.

أسأل الله أن ييسرها لطالب المنفعة من أهل العلم، وأن يكون في إنجازها على الوجه المرتضى أداء لبعض ما في عنقي من دين للعربية وعشّاقها والمشتغلين بأمرها.

ولله الحمد في الأولى والآخرة على ما وفق وأعان،،،

سعد عبدالعزيز مصلوح

الكويت أول أيام عيد الفطر المبارك عام ١٤٢٢ للهجرة
السادس عشر من ديسمبر عام ٢٠٠١ للميلاد

فاتحة الكتاب

هذا الكتاب إسهام لساني في حَلّ ما نحسبه أزمة آخذة بخناق الدرس الأدبي العربي المعاصر، وهي قضية يتجاوز خطرها الجدل السائد حول الحداثة والتحديث إلى ضرورة تواصي أهل العلم بالعمل الدائب على ترسيخ أساليب المعالجة العلمية المنضبطة للنص الأدبي، بعد أن أصبح نهباً مستباحاً لكل قادر على حَوْكِ الكلام، مُتَصَرِّفٍ في فنونه، يحسب أن في هاتين الخليقتين مَقْنعاً يغنيه.

تلكم النزعة المهيمنة على الدرس الأدبي تقعد بدراسة النص عند رسوم الموروث من النعوت والألقاب والأحكام، وتعتمد الذوق (١) مناطاً لفحص النصوص، ولا ترى في النص الأدبي شيئاً جديراً بأن يحتشد الباحث له، ويتسلح لمقاربته بمعارف العصر وعلومه، وقُصَارى أحدهم أن يشهد لنفسه بحسن الذوق، وسلامة الطبع، ونفاذ البصيرة، ثم يقتضي الناسَ الإذعان لحكمه والتسليم له بمقتضى هذه الشهادة.

ومن الدارسين فريق يجر النص الأدبي جَرّاً ليركض به خلف معطيات وتفسيرات نفسانية أو اجتماعية أو تاريخية أو مذهبية، جاعلاً منه خادماً لكل علم، ملُقياً به وراء الأسوار أسيراً للمعالجات المضمونية الضيقة، وهي معالجة لا يمكن أن تفسر وحدها ما به يكون الأدب فاعلاً وخالداً، وإن دارساً هذا دأبه لهو - في ظننا - كالضارب في التيه؛ فلا هو رضي بمقعده بين الدارسين التقليديين للأدب، ولا هو فسح لنفسه بين غيرهم من العلماء مكاناً كريماً. وحسبك بمن يعرض على الناس بضاعة مزجاة، أو ينتبذ بنفسه مكاناً قصياً يتسقَّط فيه فتات الموائد.

من هنا أحسَّ بعض المتأملين لواقع الدرس الأدبي حاجة ملحة إلى حَلٍّ تَنْشَطُ به دراسة النص من عقالها. وامتازت من صخب الزحام في السوق

الأدبية أصوات أصيلة تدعو إلى الأخذ بأسباب الدرس العلمي على بصيرة، وتهيب بأرباب هذه الصناعة أن يتسمعوا لغة العصر، وأن يصلوا أمر آخر هذه اللغة الشريفة بأوله، فيضعوا ظاهرة النص الأدبي في حاقّ موضعها من ظاهرات النشاط العقلي والإبداعي عند الإنسان.

بيد أننا وجدنا بعض من يُنْتَسَبون إلى التحديث ينطلق، من أسف، إلى وصف الجنة الموعودة التي تنتظر المتمردين على النزعات التقليدية في دراسة الأدب، والمتشبثين بأذيال البنيوية والأسلوبية والتفكيكية وما إليها، وهو يزين للناس بضاعته حتى إذا دعي إلى خوض المعترك وجدته أضعف من أن يزج بنفسه في خضم دراسة النص العربي صابراً محتسباً. وهكذا تحتشد في كتاباته أسماء أعلام الفرنجة ومذاهبهم في زحام دونه زحام الأعراس والموالد، أما النص العربي فيتوارى عنده بالحجاب. ثم إنه لا يقنع بذلك، بل يزخرف للناس حديثه في نغمة من الزَّهو والاستعلاء، يقول بها لقرائه: انظروا كيف أحسن ما لا تحسنون، وهيهات هيهات لما توعدون.

ولا يشك امرؤ في أن هذا المسلك هو أقرب طريق إلى ذيوع الشهرة وتفشي الصيت بأقل التكاليف وأيسر المئونة. غير أن دارسا يقنع من تحديث دراسة الأدب بنصيب أم الحلَيس(١) هو دارس يفتقد شجاعة مواجهة النص، ولربما كان، في ظننا، أشد خطراً على الدرس الأدبي من الواقف عند رسوم القديم، أو المتسقط لفتات الموائد، ذلك أنه لم يضف إلى هذا الدرس من الجديد ما يعد به مفارقاً للقديم، وهو لا يختلف عن صاحبه إلا في نوع ما يسَّاقط من فتات، ولأن أكثر ما يكتبه إنما يسقط آخر الأمر ما بين عجمة العقل وعجمة النقل. ومثله يُحَرِّض بصنيعه المتطلع للتحديث من شباب الباحثين على إراقة السِّقاء دون أن يبلغ بهم منابع الرِّي، ويورثهم سَخَطاً على ما في أيديهم، وبَرَماً به دون أن يُبدلهم ما هو أوفر عطاء وأَمَسُّ رَحِماً.

---

(١) أم الحُلَيْس هي تلكم المرأة التي يشير إليها الشاهد النحوي الشهير:

أمّ الحليّس لعجوزٌ شهربه
ترضى من اللحم بعظم الرقبة

لهذا كان هذا الكتاب محاولة متواضعة (ونحن نعني هذا الوصف على حقيقته) يقدمها أحد المشتغلين بالدراسات اللسانية ممن يعنيهم أمر النص الأدبي منذ أمد ليس بالقريب، وغاية ما نطمح إليه هو أن نسهم مع المخلصين، إن شاء الله، في أن نَمّهَد لأنفسنا وللباحثين من بعدنا طريقاً إلى الخروج بدراسة النص الأدبي من النفق المظلم، وإلى صياغة عربية القسمات لملامح الحداثة الراشدة التي نتغيّا بها ترسيخ المعالجة العلمية المنضبطة للنص الأدبي.

وقد أمحضنا هذا الكتاب لنمط بعينه من أنماط الدرس الأسلوبي؛ ونعني به استثمار المعالجة الإحصائية في تشخيص الأساليب، وفي إناطة الأحكام النقدية بما يُسْفِر عنه التحليل اللساني المنضبط لمباني النصوص، وحاولنا، ما وسعتنا الحيلة، أن يبرأ من أكثر ما لحظناه في غيره من مآخذ، فعرضنا فيه بالبحث النظري المستفيض لمشكلات الأسلوبيات الإحصائية، من حيث بيان مفهومها، وما يصطنع في ممارستها من أساليب وإجراءات منهجية، ومجالات توظيفها لدراسة النص الأدبي، ثم إننا تجاوزنا البحث النظري إلى مباحث تطبيقية لنصوص من الأدب العربي نثره وشعره، وحرصنا في هذه المباحث على تحرير المشكلات، والتعريف بالمصطلحات، وضبط المقاييس الأسلوبية التي جرى إعمالها في النصوص، وتعيين مصادرها، وتطويعها لمقولات النحو العربي، وبيان كيفيات تطبيقها بالأمثلة المعينة على صحة استخدامها، ودقة توظيفها، والتوسع في تطويرها لمن أراد.

ونحسبُ أننا قد تجاوزنا بكتابنا السابق (الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية) طور الاستدلال لجدوى الاتجاه الأسلوبي الإحصائي، لنحاول، بهذا الكتاب، أن ننتقل من طور الاستدلال له إلى طور الاستدلال به، واستعانته في حل مشكلات نقدية مهمة بوسائل أسلوبية لسانية منضبطة.

غير أننا ما زعمنا في سابق، ولا نزعم الآن، أن ما ندعو إليه هو الحل الوحيد المعتمد لكل المشكلات، أو المفتاح السحري الذي تُفض به جميع

المغاليق، وتتحقق به مقاصد الدرس الأدبي كاملة غير منقوصة، إن المنظور الإحصائي في معالجة النص الأدبي لا يعدو، حتى الآن، أن يكون أداة منهجية وليس منهجاً. ولا يزال الطريق أمامه طويلاً لكي يغدو نظرية من نظريات الدرس الأدبي، لكننا نؤكد أنه - بيقين - أداة كاشفة ومعينة، ووسيلة منهجية واعدة. وهي قادرة، إن شاء اللّه، على أن تخطو بنا خطوات فساحاً في سبيل عقلنة التذوق، وعلمية التناول، والتسويغ المنطقي للأحكام، والتفسير المنضبط للظاهرات الأدبية.

ذلكم هو جوهر ما ندعو إليه حين نقرر أن الأدب فن ولكن دراسة الأدب ينبغي لها أن تكون علماً، وأن استخدام لغة كثيفة المجاز في الدرس النقدي يوشك أن يفسد قضية النقد بالكلية، إذ إن من المحالات المعرفية أن يُدرس فَنٌّ بفن. ومن ثم فإني أعيد هنا ما سبق أن كتبته من سنوات عشر في كتابي «الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية»، في مثل هذا المقام إذ أقول:

> «إنني لا أستطيع، بل لا أريد، أن أبرىء كتابي هذا من الانحياز إلى تلك الفكرة التي جعلت عنوانه دليلاً عليها: وأعني بها ضرورة العمل على إرساء منهج لساني في نقد الأدب العربي، يكون فيه النص، أو الخطاب الأدبي هو موضوع الدراسة، ويكون منهج الدراسة لغويا لسانيا *Linguistic* بالمفهوم العلمي لهذا المصطلح».

وحسبنا أن نحاول مخلصين رَدّ بعض ما في أعناقنا من دين للغتنا العربية الشريفة ولتراثنا الأدبي الخالد، وأن نستشرف بهذه اللغة ومن أجلها آفاقاً من العلم والمعرفة لا تحدها حدود.

سعد مصلوح